



بِأَيِّ يَوْمٍ نَبَاهَا الْإِلَهِيَّةُ
الْوَلَدُ ثَقَافِيَّةُ



وَصَفِيَّ الْحَيَوَانِ
فِي الشَّجَرِ الْمَكِينِ

د. اسماعيل داود محمد المنتشة

أستاذ مساعد
بجامعة الملك سعود. فرع أبها.

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الكتاب إهداء من الاستاذ/

غازي الهذلي (هذلي قديم)

سحب على الماسح الضوئي خصيصا لمجالس قبيلة
هذيل بواسطة

خالد الهذلي (ابو غلا)

www.hothle.com/vb

تصميم الغلاف للفنان
عبد السلام الشريف

تَمْهِيدٌ

يأتي الإصدار الثالث من سلسلة «ألوان ثقافية» كاستجابة سريعة لرغبة العديد من القراء في استمرار هذه السلسلة التي عُدَّها بعض أدبائنا السعوديين وسيلة جيدة للاغراء بالقراءة . .

والمتتبع لحركة النشاط في النادي عن كثب يلمس الحماس الروحي الذي يتجدد للبحث عن كل نافع ومفيد ونحمد الله على ذلك .

وفي هذا الإصدار الجديد يجد القارئ لوناً جديداً من المعلومات التي جمع مادتها أحد أساتذتنا الأفاضل عن وصف الحيوان في الشعر الهذلي - وهو موضوع شيق وغاية

في الأهمية لكون هذيل احدى مصادر لغتنا العربية الفصحى
منذ القدم .

نتمنى أن نوفق دائما لتحقيق كل نافع ومفيد . .

والله وليّ التوفيق ، ،

إدارة النادي

قَبِيلَةُ هُذَيْلٍ... نَسَبُهَا وَمَوْطِنُهَا

« هذيل » من القبائل العربية العدنانية ، وهي قبيلة مشهورة عند العرب ، وخاصة في ميادين الشعر والأدب وتنسب هذه القبيلة إلى أبيها « هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان » . وتلتقي هذيل في نسب الرسول - ﷺ - عند جده الخامس عشر « مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان » .

والمشهور عند العلماء والنسّابين أن وُلِدَ هذيل بن مدركة هما : سعد بن هذيل ، ولحيان بن هذيل^(١) وأن

(١) « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم ص : ١٩٦ .

جميع البطون والأفخاذ والعشائر من « هذيل » قد تفرعت
عنهما .. كما ذكر ذلك « ابن حزم » وغيره من العلماء
والنسابين^(١) .

وكان الهذليون يسكنون جبال السّراة التي أُخِذَتْ
اسمهم وعُرفت بسراة هذيل ، وهي تقع بين مكة والمدينة ،
وسراة هذيل متصلة بجبل غزوان قرب الطائف .. وقد أوضح
« البكري » منازل هذيل بقوله : « وكانت لهذيل جبال من
جبال السراة ، ولهم صدور أوديتها وشعابها الغربية »^(٢) .

ويقول « القلقشندي » : « وديارهم بالسروات ،
وسرواتهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف ، ولهم مياه
وأماكن في جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة »^(٣) .

وقد كان لهم أماكن ومياه في أسفل السروات من جهة
نجد ، وتتصل بسراتهم سروات جشم من بني معاوية بن بكر
من هوازن .

(١) المرجع السابق ص ١٩٦ و « نهاية الأرب في فنون الأدب » للنويري :
٣٤٨ / ٢ .

(٢) « معجم ما استعجم » للبكري : ٨٨ / ١ .

(٣) « قلائد الجمان في معرفة عرب الزمان » للقلقشندي ص : ٧٢ .

وذكر « عرام بن الأصبح » في كتابه : « أسماء جبال تهامة وسكانها » أنه كانت أقسام من هذيل تسكن ضرعاء وهي « قرية بها قصور ومنبر وحصون »^(١) وأن قسماً كان يسكن في قرיתי رُهاط والحديبية^(٢) ، وقسماً آخر كان يسكن في مر الظهران وهي « قرية في واديها عيون كثيرة ونخيل وجُمُيز »^(٣) .

ويقول « ابن حوقل » : « وبغزوان ديار بني سعد وسائر قبائل هذيل »^(٤) .

ودكر ابن خلكان أن هذيلاً قبيلة كبيرة وأن أكثر أهل وادي نخلة المجاور لمكة المكرمة هذليون من هذه القبيلة^(٥) .

على أن هذيلاً هبطت إلى جنوب الحجاز حتى اتصلت بعسير في الجنوب . . . فذكر الأستاذ فؤاد حمزة في كتاب « قلب جزيرة العرب » أن قبيلة هذيل تنقسم إلى قسمين : شمالي وجنوبي ، فالأول تقع دياره في أطراف مكة من جهة

(١) « كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها » لعرام بن الأصبح السلمي ص : ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص : ٢٧ .

(٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(٤) « صورة الأرض » لابن حوقل ١ / ٢٢ .

(٥) « وفيات الأعيان » لابن خلكان ١ / ٢٧٢ .

الشرق والجنوب ، وأطراف الطائف بقرب جبل بَرَد وجبل ذكا المشهور ، والقسم الثاني هذيل الجنوب ، وهو الذي سكن في بعض مناطق عسير^(١) .

مكانتها الأدبية واللغوية :

اشتهرت قبيلة هذيل بفصاحتها وبلاغتها ، وكان لها نصيب كبير في دولة الشعر والأدب ، فقد كَثُرَ شعراؤها كثرة هائلة ، وغزرت أشعارها غزارة تضعها في المركز الأول بين القبائل العربية . وإن ما وصل إلينا من أشعارهم يمثل أكبر ما عرف لأية قبيلة من العرب .

يقول الزُّبَيْدِي : « وهذيل أعرقَّت في الشعر »^(٢) .
ويقول « ابن حزم » : « وفي هذيل نيف وسبعون شاعراً مشاهير »^(٣) .

(١) « قلب جزيرة العرب » للأستاذ فؤاد حمزة ص : ٢٠٢ .

(٢) « تاج العروس » مادة (هذل) .

(٣) « جمهرة أنساب العرب » ص : ١٩٨ .

وقد سئل حسان بن ثابت رضي الله عنه : مَنْ أشعرُ
الناس ؟ فقال : أرجلاً أم حياً ؟ قيل له : بل حياً ، قال :
أشعرُ الناس حياً هذيل .

قال ابن سلام الجمحي : وأشعرُ هذيل « أبو ذؤيب »
غير مدافع^(١) .

وقال « الأصمعي » : « قال أبو عمرو بن العلاء :
أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم أهلُ السَّروَات وهنُّ ثلاث ؛
وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن : فأولها
هذيل ، وهي تلي السهل من تهامة ، ثم بجيلة في السَّراة
الوسطى ، وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ، ثم سراة
الأزد - أزد شنوءة - وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن
نصر بن الأزد »^(٢) .

وكثيراً ما تحدث العلماء والنقاد عن شاعرية هذيل ،
وكثرة أشعارها وشعرائها ..

(١) « العمدة » لابن رشيق ١ / ٨٨ ، و « الأغاني » ٦ / ٢٥٠ .

(٢) « العمدة » لابن رشيق ١ / ٨٩ ، و « بلوغ الأرب » للألوسي : ٣ /

قال « الأصمعي » : « إذا فات الهذلي أن يكون شاعراً
أو ساعياً أو رامياً فلا خير فيه »^(١) .

وقال « يونس بن حبيب » : « ليس في هذيل إلا شاعرٌ
أو رامٍ أو شديدُ العَدُو »^(٢) . وفي كتاب « فحولة الشعراء »
ذكر « الأصمعي » أن فيهم أربعين شاعراً مفلقاً ، وكلهم يعدو
على رجله ليس فيهم فارس^(٣) .

وكان لهذه القبيلة في الجاهلية سوق خاصة ، وهي
سوق ذي المجاز . . . وكانت على بعد فرسخ من عرفة^(٤) .
فكانوا يتناشدون بها ما يتثال على ألسنتهم من أشعارهم ومن
يأتيهم من قبائل العرب الأخرى .

فهذا يدل دلالة واضحة على كثرة شعرهم وشعرائهم ،
كثرة لفتت أنظار العلماء والنقاد .

والحق أن هذه القبيلة اشتهرت ببلاغتها وفصاحتها ،

(١) « الأغاني » : ٢١ / ٢٣٣ .

(٢) « البيان والتبيين » للجاحظ ١ / ١٧٤ .

(٣) « فحولة الشعراء » للأصمعي ، ص : ٣٧ .

(٤) « بلوغ الأرب » للألوسي : ١ / ٢٦٦ .

وكثرة شعرها . . وقد نبغ فيها من الشعراء من لم ينبغ مثله
كثرة وجودة في أية قبيلة من العرب . وإنَّ مَنْ يَسْرَحَ نظره في
أشعارهم يتضح له بصورة أكيدة ما كان يمتاز به شعرهم من
البلاغة والفصاحة ، وسلامة الطبع والفطرة ، فقد كان الشعر
ينثال على ألسنتهم بدون تكلف .

ولقد شاع الغريب في أشعار هذيل شيوخاً واسعاً ،
وظهرت في أشعارهم سمات البداوة واضحة ، لأنهم أهل
البادية . . ففي أشعارهم الكثير جداً من الألفاظ الغريبة ،
والكثير من أسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه^(١) .

والواقع أن علماء اللغة - الذين كانوا يبحثون عن فصيح
الكلام والألفاظ والذين كانوا لا يثقون إلا بالعرب الفصحاء -
قد وجدوا في الشعر الهذلي كنزاً ثرياً من كنوز اللغة
العربية ، . يستمدون منه شواهدهم على الغريب ، الذي
ذهبوا يجمعونه من البوادي ليكملوا به دراستهم اللغوية . . .
ويكفي أن ننظر في معجم ، كـ « لسان العرب » لنرى كيف
تنتشر فيه الشواهد من أشعار هذيل على كثير من المعاني

(١) « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ١ / ٨٣ .

التي كان اللغويون يفسرون بها غرائب اللغة وشواردها . فقد انتشرت فيه الشواهد من الشعر الهذلي انتشاراً واسعاً ، بعيد المدى . ففي هذا المعجم وحده يتردد اسم أبي ذؤيب وأبياته دون غيره من شعراء هذيل أكثر من ست آلاف مرة^(١) . ونرى هذه الصورة نفسها في غيره من معاجم اللغة المطولة كـ « تاج العروس » للزبيدي مما يدل دلالة واضحة على عناية العلماء واللغويين واهتمامهم بأشعار هذيل .

ولقد اعتمد المفسرون كثيراً على الشعر الهذلي في تفسير ألفاظ القرآن الكريم وآياته الحكيمة . فالقرآن قد نزل بلغة العرب ، وعلى أساليبهم في كلامهم ولعل في هذا إشارة إلى أهمية الشعر الهذلي والشعر الجاهلي بوجه عام في فهم معاني القرآن الكريم من ألفاظه وأسلوبه .

وقد عُنى النحاة بالشعر الهذلي عناية خاصة . . . وذلك لأن هذيلاً كانت قبيلة بادية بعيدة عن الاختلاط بغير العرب الأقحاح فسلم لسانها عن اللحن والفساد ، إلى جانب أنها تمتاز بالفصاحة وسلامة اللسان ، وسلاسة الطبع والسليقة العربية الصافية البعيدة عن شوائب العجمة . فلا

(١) « قطوف من ثمار الأدب » للدكتور عبد السلام سرحان ٢ / ١٢٠ .

عجب إذن أن يهتم النحويون بالشعر الهذلي حيث
يستشهدون به على قواعد النحو العربي . . . وذلك واضح
في كل مصادر النحو ، وفي مختلف القضايا النحوية التي
بحثها العلماء .

ومن الجدير ذكره أنه قد نبغ في هذيل العديد من
الشعراء المفلقين الأفاذ ، الذين سجلوا بأشعارهم صفحات
ناصعة ، تدل على شاعريتهم الفذة ، وما تمتاز به من ألوان
الحسن والروعة ، ومن صور الإثارة والفتنة والجمال .

وفي كتاب « شرح أشعار الهذليين » و« ديوان
الهذليين » ما ينيف على مائة شاعر ، أكثرهم من المشهورين
ومن أصحاب القصائد الطويلة ، وبعضهم من أصحاب
المقطعات القصيرة .

ومن مشاهيرهم : أبو ذؤيب ، وساعدة بن جؤية ،
وأبو خراش ، والمتنخل ، وأبو كبير ، وأبو العيال ،
والأعلم ، والمعطل ، وصخر الغي ، وعمرو ذو الكلب ،
وأخته جنوب ، ومالك بن الحارث ، ومُليح بن الحكم
القردي ، وأميه بن أبي عائذ ، ومعقل بن خويلد ، وأبو

صخر . . . إلى غيرهم من المشاهير من شعراء هذه القبيلة .

وإن الناظر فيما بين أيدينا من أشعار هذيل يجد أن جل فنون الشعر فيها ظاهرة ومتحققة بأروع أسلوب ، وأجلى بيان ، كالحماسة والرثاء والوصف والفخر والغزل ثم المدح والهجاء والعتاب والحكمة وبكاء الشباب الذاهب . . . إلى غير ذلك من الأغراض التي خاضوها وتحدثوا عنها ، وبرعوا فيها .

والحق أن شعراء هذيل سجلوا في أشعارهم كل ما كانوا يشاهدونه في حياتهم وما كانت تقع عليه أعينهم من مظاهر الوجود حولهم ، لذلك كان شعرهم سجلاً صادقاً ورائعاً ، أبرز مجد قبيلتهم ، ورفع شأنها بين القبائل العربية . . . ولا غرو أنه كان صفحة ناصعة مشرقة بين صفحات الشعر العربي الجيد الأصيل .

وَصَفَّ الْحَيَوَانَ

الوصف من أدق موضوعات الشعر العربي ، ولا ينهض به إلا كل نفاذ للبصر لَمَاحٍ للبصيرة ، صافي الذهن ، دقيق الإحساس ، رقيق الشعور ، وقد برز فيه العرب وسبقوا ، وكان لشعرائهم حظ وافر ونصيب كبير منه ، فكان شعرهم تصويراً صادقاً لكل ما وقعت عليه أنظارهم من مظاهر الطبيعة ، وأحداث الحياة .

والوصف من الفنون البارزة التي برع فيها الشعراء الهذليون ، فقد نظروا في الطبيعة الصحراوية ، ودققوا النظر ، فوصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم . وصوروا الطبيعة وما فيها من حيوان أو طير أو نبات ، كما وصفوا الأمطار والسحاب والبرق والرعد والنور والظلام ، فرسموا بذلك لوحاتٍ ناطقة بالفن الجميل ، والطبع الأصيل ، مهتمين بكل صغيرة وكبيرة من مشاهد الصحراء والجبال والسهول والوديان والشعاب . ولم يتركوا شيئاً من ذلك إلا سجلوه في أشعارهم .

وكان للحيوان أكبر الأثر في حياتهم ، وهو أقرب إلى

نفوسهم وعواطفهم ، ولذلك اعتنوا به عناية خاصة ، فوصفوا جسمه وقوته ، وقسماته وعاداته ، وحركته وطبيعته .

والحق أن من يتتبع وصف الحيوان في أشعارهم يتضح له أنهم لم يتركوا مظهراً من مظاهر الحياة حولهم إلا سجلوه في أشعارهم . . حتى الأشياء الصغيرة التي قد تبدو قليلة الأهمية لا تلفت النظر ، ولا تستحق التسجيل ، نراهم سجلوها واهتموا بها في صورهم الشعرية ، ولوحاتهم الفنية .

فقد وصفوا الإبل وصفاً جميلاً ، كما وصفوا الخيل ، ووقفوا طويلاً عند الحيوان الشارد في البادية ، والساري على رمالها . . فوصفوا قطعان الحمر والبقر الوحشية ، ووصفوا الأسود والنمور والذئاب والثعالب والضباع ، ووصفوا الظباء وصغارها . كما وصفوا الحمام والنعام والصقور والنسور والعقبان ، ثم الحيات والزواحف الأخرى . كما وصفوا النحل واشتتار العسل ، وكانت لهم بذلك عناية خاصة .

الإبل :

احتلت الناقة مكاناً بارزاً في الشعر الهذلي ، فهي مصدر الخير والرزق ، ورفيقة السفر التي تقطع الفيافي ، وتجتاز الفلوات دون كَلَلٍ أو ملل . وقد فُتِنَ بها الهذليون ، ووقفوا يتأملونها ، فوصفوا جسمها الضخم القوي ، وشبهوها بالصخرة الصلبة .. ووصفوا سرعتها في السير ، ونشاطها فيه .

وعلى طول ديوانهم الضخم تلقانا صور متعددة للإبل ، لا يمكن أن تكون صادرة إلا عن عاطفة حب تملأ عليهم قلوبهم . فهذا أبو ذؤيب يتناول النوق في شعره كثيراً ، ونراه يشبه الناقة بالصخرة في صلابتها وقوة بأسها ، ويصفها بأنها مشمرة طويلة القوائم .. مما يدل على سرعتها .. فيقول :

فما فَضْلَةٌ مِنْ أَذْرِعَاتٍ هَوَتْ بِهَا
مُذَكَّرَةٌ عَنَسُ كَهَادِيَةِ الضُّحَلِ

سُلَافَةٌ رَاحَ ضُمْنَتُهَا إِدَاوَةٌ
مُقَيَّرَةٌ رَذَفُ لِمُؤَخِّرَةِ الرُّحْلِ

تَزَوَّدَهَا مِنْ أَهْلِ بَصْرَى وَغَزَّةٍ
عَلَى جَسْرَةٍ مَرْفُوعَةٍ الذُّيْلِ وَالْكِفْلِ

فَوَافَى بِهَا عُسْفَانَ ثُمَّ أَتَى بِهَا
مَجَنَّةً تَصْفُو فِي الْقِلَالِ وَلَا تَغْلِي

وَرَاخَ بِهَا مِنْ ذِي الْمَجَازِ عَشِيَّةً
يُيَادِرُ أَوَّلَى السَّابِقَاتِ إِلَى الْحَبْلِ

فَجِئْنَا وَجَاءَتْ بَيْنَهُنَّ وَإِنَّهُ
لِيَمْسَحُ ذِفْرَاهَا تَزْعُمُ كَالْفَحْلِ

فَجَاءَ بِهَا كَيْمَا يُوفِّي حَاجَّةً
نَدِيمٌ كِرَامٍ غَيْرُ نِكْسٍ وَلَا وَغْلٍ^(١)

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٩٣ مذكورة : خلقتها خلقة الفحل .
عنس : شديدة صلبة . فضلة : بقية . . . هوت بها : سارت . هادية
الفحل : صخرة في مقدم الماء ويمر عليها الماء . الضحل : الماء
الرفيق . الكفل : كساء يوضع على عجز البعير ليركب عليه . جصرة :
جسيمة . مجنة : موضع على أميال من مكة . وافي بها : أتى عليها .
القلال : الحبيبة والجرار . الحبل : جبل عرفة . ذفراها : هو النائي
في القفا من الأذنين . تزعم : تصيح وتصوت من نشاطها . النكس :
الضعيف الوغل : الذي يدخل على القوم . . ولم يدعوه .

أما «مُليح بن الحكم القُردي» فإنه يصف الإبل وصفا
جميلاً . . . ويقف عندها وقفة طويلة متأمله . . . ثم يشبهها
بالسفن . . . فيقول :

حتى رأيتُهُم تَغْلُو رِحَالُهُم
مَلْمُومَةً فَوْقَهُنَّ النَّيُّ وَاللَّبْدُ

سُدْساً وَبُزْلاً إِذَا مَا قَامَ رَاحِلُهَا
تَحَصَّنَتْ بِشِبَاءٍ أَطْرَافُهُ غَرْدُ

فَقَلَّ مَا لَبثُوا حَتَّى اسْتَمَرَّ بِهِمْ
بَيْنَ كَعَطِّ الرِّدَاءِ الْعَصَبِ مُنْجَرِدُ

تُحْدِي بِهِمْ رَاحِيَاتُ الِهِمِّ مُجْفَرَةٌ
غُلْبٌ يَشُدُّ لَهَا أَتْبَاجَهَا الْقَحْدُ

مُضْطَفَّةٌ كَاصْطِفَافِ الْفُلِّ لَا لُجُنْ
تَحْتَ السَّيَاطِ وَلَا مَشْعُوفَةٌ شُرْدُ

كَأَنَّ مَا فَوْقَهَا مِمَّا عَلَيْنَ بِهِ
دِمَاءُ أَجْوَافِ بُذْنٍ لَوْنُهَا جَسْدُ

فَالْعَيْرُ تَحْمِلُ أَشْوَاقاً مُضَعَّفَةً
وَالْعَيْنُ يُكْحَلُ فِيهَا الصَّابُ وَالرَّمْدُ

وَقُلْتُ وَهِيَ بَعِيدٌ وَاسْتَمَرُّ بِهِمْ
آلٌ يُعَمِّمُهُمُ وَالْقَرَقَرُ الْجَرْدُ

بَحْرِيَّةٌ فَوْقَ غَمْرِ الْمَاءِ غَادِيَّةٌ
يَزْفِي كَلَاكِلَهُنَّ الْمَوْجُ وَالزُّبْدُ^(١)

ونمضي معه في قصيدته ، حتى نراه يصف سيرها في
هدوء الليل ، واتزانها فيه ، وأنها في سيرها تلزم الموكب .
ثم يشبه مشيها بمشي النعامة لخفتها ورشاقتها فيه . . . حيث
يقول :

لَا تُسْتَزَادُ وَلَا تُثْنَى بِرَاكِبِهَا
إِذَا تَفَاضَلَتِ الْعِيدِيَّةُ النُّجْدُ

(١) المرجع السابق ١٠١٣ / ٣ ملمومة : إبل سمان . النِّي : الشحم .
اللبد : الوبر . تحصنت بشيا : أراد حدة الأنياب . غَرْد : مصوت . .
يريد أنها تحصنت بصريفها ، وذلك أنه إذا سمع صريفها علم أن الإبل
قُطِمَ أي شديدة الاغترام . منجرد : ذاهب . عط : شق . راجفات :
متحركات الرؤوس في مسيرها . مجفرة : عظام الجُنب . غلب :
غلاظ الرقاب . الشج : الجنب . القحد : الأسنمة ، واحدها :
قَحْدَة . اللجون : الثقيلة البليدة . مشعوفة : والهة إلى أوطانها وإلى
صواحبها . سُرد : ذاهبة . آل : سراب . يعممهم : يكسوهم
ويلبسهم . القرقر : الأرض المستوية . الجرد : الذي لا بيت فيه .
بحرية : سفن شبه الإبل بها . يزفي : يسوق .

تُخْدِي إِذَا مَا ظِلَامُ اللَّيْلِ أُمَكَّنَهَا
مِنَ السُّرَى وَفَلَاةٌ شَحْشَحُ جَرْدُ

خَذِي النِّعَامَةَ رَاحَتْ وَهِيَ خَائِفَةٌ
فَرَّقَتْ زُفَهَا مَشْعُوفَةٌ تَخْدُ

إِذَا الْمَطَايَا غَدَاةَ الرَّبْعِ اتَّعَبَهَا
رَمْلٌ تَمُدُّ لَهُ أَعْنَاقَهَا صَعْدُ

وَأَرْهَقَتْهُنَّ مِنْهَا سِيرَةٌ نَكْظًا
تَكَادُ مِنْهَا ذِرَاعُ الْعَنْسِ تَنْقَصِدُ^(١)

فلما كانت الناقة سفينَةَ الصحراء في البادية ، فلا
عجب أن يهتم بها الهذليون ويصفوها .. ثم يشبهوها
بتشبيهات عديدة تناسب بيئتهم البدوية .. فهم قد شبهوها

(١) لا تتني براكبها : لا تؤخره عن الموكب . العيدية : الإبل المنسوبة إلى
« عَيْدَانِ بْنِ مَهْرَةَ » . النجود : الماضي . الخديان : ضرب من السير .
شحشح : فلاة واسعة بعيدة قَحْلٌ لا نبت بها . جرد : جرداء . أرهقتهم :
أدركتهم . نكظًا : عجلة شديدة .. « أنكظني عن حاجتي :
أعجلني » . تنقصد : تنكسر .

بالصخرة الصلبة تارة .. وبالسفينة تارة أخرى ، وأحيانا
يشبهون مشيها بمشي النعامة لخفتها ورشاقتها .

وكان « مُلَيِّحٌ » مفتوناً بوصف الإبل ... فنراه في
إحدى قصائده الغزلية يشبهها بتشبيهات عديدة ، ويرسم
صورة دقيقة لناقته ، .. فهي كالفحل في قوتها ... ثم يذكر
أنها ماطلية أي منسوبة إلى ماطل وهو فحل من كرام
الإبل ، إليه تنسب الإبل الماطلية ، ... وهي ناقة يستخفها
الطرب في السير حتى كأنها خريع - أي فاجرة - تشنى في
مشيتها ، وتختال في سيرها .. يقول :

قَطَعْتُ إِذَا مَا اللَّيْلُ أَدْنَى رِوَاقُهُ
بِمُلَّتِهِمِ الصَّحْرَاءِ جَوْنَ الْغَيَاطِلِ

بِعَيْدِيَّةٍ كَالْفَحْلِ أَوْ مَاطِلِيَّةٍ
لِحُوقِ التَّوَالِي ذَاتِ جِدٍّ وَبَاطِلِ

لَجُوجٍ إِذَا اسْتَلَجَجَتْهَا ذَاتِ رِيْعٍ
إِذَا خَوْدَعَتْ زَهْوَ الْخَرِيعِ الْمُخَايِلِ

مِنَ الْخُرْسِ إِلَّا أَنْ تَرُدَّ بُغَامَهَا
إِلَى طَيِّ مُثْنِيٍّ الْحَصِيرَيْنِ قَافِلٍ^(١)

الخيـل :

كانت هذيل تمتلك الخيل ، ولكن يبدو أن الخيل كانت قليلة عندهم . وبعبارة أدق لم تكن الخيل شائعة عندهم يمتلكها كل فرد من أفرادهم ، فكان امتلاكها مقصوراً على الأغنياء والقادرين منهم . .

يقول الأصمعي : «إنهم كانوا أصحاب جمال وكانوا يغيرون رجالة لم تكن لهم خيل»^(٢) .

(١) المرجع نفسه ٣ / ١٠٢٦ ملتهم الصحراء : يعني الليل . الغياطل : الظلم الشديدة واحدها غيطلة . العيدة : الإبل المنسوبة . . التوالي : أرجلها . ماطلية : منسوبة . ذات ريع : تريع في العدو وترجع في المشي . المخايل : المفاخر . الخريع : الفاجرة . من الخرس : ترد بغامها إلى جوفها يريد أنها لا ترغو . الحصيران : الجنبان . قافل : ضامر .

(٢) ديوان الهذليين ١ / ١٧ .

وذكر «السكري» أن هذيلاً ليسوا بأصحاب دواب إنما هم رَجَالَة^(١). ولعل سبب ذلك أن الخيل على عكس الجمل الذي يمكن تربيته في كل مكان، فهي لا تنشأ إلا في البقاع الخصبة كسهول العراق وسورية ونجد، وفي نجد وحدها أعز الخيول العربية وأرشقها^(٢). ومنطقة هذيل في جملتها لا تناسب الخيل؛ لأنها جرداء صلبة مجدبة، والخيل لا تكون إلا حيث الخصب، وسهولة الأرض.

ومهما يكن من أمر فقد قام شعراء هذيل بوصف الخيل ولو أن ذلك كان قليلاً في أشعارهم.. فهذا «أبو ذؤيب» قد تناول وصف الفرس في عينيته التي رثى فيها أولاده الخمسة.. ووصف الفارس وهو يعتلي صهوة فرسه السريعة، والتي بلغ من سرعتها في عدوها أنها تكسر الحلق، وتمزق الأديم، وأن ذلك الفارس قد غني بفرسه، فجعل اللبن لها خالصاً حيث رباها ونمّاها وقواها، فاكتنز لحمها، وتماسكت عضلاتها، وأن عظامها اكتسبت ثوباً من الشحم الدسم واللحم السمين، بحيث أنك لو غمزت فيه الإصبع لم تبلغ

(١) المرجع السابق ٢ / ٧٦ .

(٢) حضارة العرب - جوستاف لوبون ص : ٤٥ .

العظم، وأن هذه الفرس قد تشقق لحمها عن النساء، فبدا
وظهر، وأنها ذاوية الضرع لأنها لم تحمل قط، ولم يجر في
ضرعها لبن . . . وهذا جدير أن يجعلها قوية متينة، وشديدة
مكيئة .

ثم وصف الفرس بأنها عزيزة النفس، مرهفة الحس،
شديدة الأنفة، وأنها لا تجري إذا استعمل معها العنف، لأنها
معتدة بالأصالة، فلا تساق بسوط، ولا تضرب بسباق، بل
تنساب بفطرتها في سيرها، وتجود بما عندها عفوا وفضلاً . .
فهو يقول :

تَعْدُو بِهِ خَوْصَاءُ يَفْصِمُ جَرِيُّهَا
حَلَقَ الرَّحَالَةِ فَهِيَ رِخْوٌ تَمَزَعُ

قَصَرَ الصُّبُوحَ لَهَا فَشَرَجَ لَحْمَهَا
بِالنِّيِّ فَهِيَ تَشُوخُ فِيهَا الْإِصْبَعُ

مُتَفَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عَنْ قَانِيءٍ
كَالْقُرْطِ صَاوٍ (غَبْرُهُ) لَا يُرْضَعُ

تَأْبَى بِدِرَّتِهَا إِذَا مَا اسْتُغْضِبَتْ
إِلَّا الْحَمِيمَ فَإِنَّهُ يَتَبَضَّعُ^(١)

وقد عيب على أبي ذؤيب في البيت الثاني قوله:
«تشوخ فيها الإصبع» وتشوخ أي تدخل فيه ..

قال الأصمعي: «وهذا من أخبث ما نعتت به الخيل،
لأن هذه لو عدت ساعة لانقطعت، لكثرة شحمها، وإنما
توصف الخيل بصلابة اللحم، وأبو ذؤيب لم يكن صاحب
خيل»^(٢).

والواقع أن الشاعر يريد أن عليها من الشحم واللحم ما
لو غَمَزَتْ بإصبعك لم تبلغ العظم .

-
- (١) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢ / ١٦٥ .
خوصاء : غائرة العينين . يفصم : يفضل بسهولة وقال بعضهم : يكسر .
حلق الرحالة : حلق الحزام ويقال : الإبزيم . الرحالة : سرج من
جلود . رخو : سهل لين . تمزع : تسرع . الصبوح : شرب الغداة .
سرج : خلط . تشوخ : تدخل وتغيب وقال بعضهم : ترفض .
الأنساء : جمع نساء وهو عرق يمتد في الورك والفخذ والساق ، ويبدأ
من متن الظهر قرب الحوض حتى أخمص القدم .. الغَيْر : بقية
اللبن ، الدرة : اللبن . الحميم : العرق ، يتبضع : يسيل ويتفجر .
(٢) ديوان الهذليين ١ / ١٦ .

وقال بعض العلماء: تشوخ أي ترفض عنها الإصبع لأنها مكتنزة اللحم، أي تعدل من اكتنازها.. وهذا معنى مقلوب^(١). فالشاعر يقصد أن عليها من الشحم واللحم ما لو غمزت فيه بإصبعك لم تبلغ العظم.. ولم يرد أن الأصبع تغيب فيها.

ونقطة أخرى آخذه «الأصمعي» عليها في هذه الأبيات.. وهي قوله:

تَأْبَى بِدِرَّتِهَا إِذَا مَا اسْتُغْضِبَتْ
إِلَّا الْحَمِيمَ فَإِنَّهُ يَتَبَضَّعُ

قال الأصمعي: «وهذا مما لا توصف به الخيل، وقد أساء، وإنما أراد بهذا شدة نفسها، إلا أنه كان لا يجيد في صفة الخيل، وظن أن هذا مما توصف به»^(٢).

ووجه إساءته أنه وصف الفرس بما توصف به الناقة، فإن الذي يحمل على سرعة العدو بالسوط ونحوه إنما هي الناقة، وهذا وصف سيء للفرس.

(١) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام مروحان ٢ / ١٦٦ .

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٣٥ .

وأما «ساعدة بن جُوَيْة» فقد اشتهر في وصف الخيل
بين شعراء هذيل .

والحق أنه قد وصفها وصفاً دقيقاً وأجاد فيه . . فنراه
في إحدى قصائده يصف الخيل السريعة عند قومه، ويحدثنا
عن قوتها وصلابتها وشدة بأسها . . ويصور لنا خفتها
ورشاقتها .

وفرس «ساعدة» عَبل القوائم، طويلة، ثم إنها سريعة
جداً حتى كأنها تنهب العدو انتهاباً، ثم هي ممتلئة اللحم،
ومجدولة الخلق، وملتفة الأعضاء، وضخمة فخمة . . وقد
بلغ من شدتها أن حوافرها قوية التحمل حتى كأن شعراتها
استبدلت بحجارة صلبة ، وفوق ذلك فإن فرسه يهتز لرشاقتها
وخفته . . وذلك حيث يقول :

مِنْ كُلِّ فَجٍّ يَسْتَقِيمُ طِمْرَةٌ
شَوْهَاءُ أَوْ عَبْلُ الْجَزَارَةِ مِنْهَبٌ

خَاطِي الْبَضِيعِ لَهُ زَوَافِرُ عَبْلَةٍ
عَوْجٌ وَمَتْنٌ كَالْجَدِيدَةِ سَلْهَبٌ

وَحَوَافِرُ تَقَعُ الْبَرَاخَ كَأَنَّمَا
أَلْفَ الزُّمَاعِ بِهَا سِلَاحٌ صُلْبٌ

يَهْتَزُّ فِي طَرْفِ الْعِنانِ كَأَنَّهُ
جَذْعٌ إِذَا فَرَعَ النُّخِيلَ مُشْدَبٌ^(١)

ولا شك أن الشاعر قد أجاد في وصف الفرس، فمع أن فرسه ممتلئة اللحم وضخمة، فإنها تبدو مجدولة الخلق، ملتفة الأعضاء، وهذا دليل قوة الفرس.. ولا عجب بعد ذلك أن يهتز فرسه كأنه جذع نخلة قد شذب عنه سعفه.. لحدثه ورشاقتة.

ولقد أخذ الشاعر في قصيدة أخرى يصف المعركة التي قُتل فيها ابنه،.. وبعد أن رثاه واصفا شجاعته وإقدامه، في الطعان والنزال.. أخذ يصف الخيل، وكيف أن الفرسان تناولوا أرسان الجياد الطويلة الأعناق، والتي بلغ من

(١) المرجع السابق ٣ / ١١١٦ الجزارة : القوائم . طمرة : طويلة .
الشوها من الخيل : المشرفة . منهب : كأنه ينتهب العدو انتهابا يريد
أنه سريع . الجديلة : حبل مجدول من سيور أو شعر أو صوف .
خاظمي البضيع : ممتلىء اللحم . زوافر الفرس : وسطه . سلهب :
طويل . عيلة : ضخمة . عوج : ضلوع متعطفة . تقع البراح :
تقرعه . السّلام : هي الحجارة . البراح : المستوي من الأرض .
الزماح : شعرات خلف الحافر . إذا فرع النخيل : إذا علاها .
مشذب : مُنْقَى .

سرعتها أنه لا يدرك عدوها ، ثم يصف فرسه بأنه منجرد ،
ومتفخ الجبين ، وأن ذيله كثير الشعر ، كأعالي شجر
البردي . . وذلك حيث يقول :

فَنَاشُوا بِأَرْسَانِ الْجِيَادِ وَقَرَّبُوا
عَنَاجِيَجَهُمْ مَجْنُونَةً بِالرَّوَاكِيلِ

وَكُلُّ شَمُوسٍ الْعَدُوِّ ضَافٍ سَبِيْهَا
وَمُنْجَرِدٍ كَالسَّيْدِ نَهْدِ الْمَرَائِلِ

يُمِرُّ عَلَى السَّاقِيْنَ وَحَفَاً كَأَنَّهُ
دَنَا حَفَاً مَرَّتْ بِهِ الرِّيحُ مَائِلٌ^(١)

فالشاعر في الموضعين وصف الفرس وصفاً دقيقاً . .
وصف جسمه وقوته ، وعظم هيكله ، وهو مفتون بسرعه

(١) المرجع نفسه ٣ / ١١٨٣ ناشوا : تناولوا . الأرسان : جمع رسن
محركة : الحبل وما كان من زمام على أنف . العناجيج : الطوال
الأعناق . مجنونة : يعني هذه الخيل تجنب إلى الإبل . شمس : لا
يدرك عدوها . سبيها : ناصيتها . صناف : كثير . المنجرد :
الماضي . نهدي المراكل : ضخم موضع عقبي الراكب والمراد أنه متفخ
الجنين . على الساقين وحفاً : يريد ذنباً كثير الشعر . دنا حفاً :
يريد أعالي البردي ، والحفا : البردي .

ونشاطه . ونلاحظ ان فرس «ساعدة» فرس حرب وقتال ونزال، حيث أعده للحرب والغارة والفروسية كفرس «عنترة» الذي يتسربل بالدم . . وهو ليس كفرس امرئ القيس فرس الصيد واللهو، الذي يباكر الوحوش ويقيدها .

حمر الوحش :

يتردد ذكر حمار الوحش عند شعراء هذيل على مدى واسع، وكثيراً ما فعل ذلك صعاليك هذيل في أثناء الحديث عن عَدُوهم وفرارهم . . حتى ليقول الدكتور يوسف خليف : « إن ذكر حمار الوحش في صدد الحديث عن العَدُو خاصة هذلية »^(١) .

ومن أشهر شعراء هذيل الذين برعوا في تصوير حمر الوحش « أبو فؤيب ، وأبو خراش ، وصخر الغي والأعلم » . . وغيرهم .

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ص ٢٢٠ .

ونرى إتقان التصوير وبراعته ودقته فعلاً في صورة لأبي
خراش يرسمها لحمار الوحش وأتته . . . وذلك حيث يقول :

أَرَى الدَّهْرَ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ
أَقْبُ تُبَارِيهِ جَدَائِدُ حَوْلُ

أَبْنُ عِقَاقاً ثُمَّ يَرْمَحُنْ ظَلَمَهُ
إِبَاءً وَفِيهِ صَوْلَةٌ وَذَمِيلُ

يَظَلُّ عَلَى الْبَرْزِ الْيَفَاعِ كَأَنَّهُ
مِنَ الْغَارِ وَالْخَوْفِ الْمُحِمِّ وَيَيْلُ

وَضَلُّ لَهَا يَوْمٌ كَأَنَّ أَوَارَهُ
ذَكََا النَّارِ مِنْ فَيْحِ الْفُرُوعِ طَوِيلُ

فَلَمَّا رَأَيْنَ الشَّمْسَ صَارَتْ كَأَنَّهَا
فُوقَ الْبَضِيعِ فِي الشُّعَاعِ خَمِيلُ

فَهَيَّجَهَا وَأَنْشَامَ نَقْعاً كَأَنَّهُ
إِذَا لَفَّهَا ثُمَّ اسْتَمَرَّ سَجِيلُ

مُنِيباً وَقَدْ أَمْسَى تَقَدَّمَ وَرَدَّهَا
أَقِيدِرُ مَحْمُورُ الْقِطَاعِ نَذِيلُ

فَلَمَّا دَنَتْ بَعْدَ اسْتِمَاعِ رَهْقْنَهُ
بِنَقَبِ الْحِجَابِ وَقَعُهُنَّ رَجِيلُ

يُفَجِّينَ بِالْأَيْدِي عَلَى ظَهْرِ آجِنِ
لَهُ عَرْمَصُ مُسْتَأْسِدٍ وَنَجِيلُ

فَلَمَّا رَأَى أَنَّ لَا نَجَاءَ وَضَمُّهُ
إِلَى الْمَوْتِ لِضَبِّ حَافِظٍ وَقَفِيلُ

وَكَانَ هُوَ الْأَدْنَى فَخَلَّ فُؤَادُهُ
مِنْ النَّبْلِ مَقْتُونُ الْغَرَارِ بَجِيلُ^(١)

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١١٩٠ أقب : حمار خميص البطن .
جدائد : جمع جدود وهي التي لا لبن لها . حول : جمع حائل وهي
التي لم تحمل من عامها . الإبانة : استبانة الحمل ، أي أظهرن حملهن .
ظلمه : هو طلبه منهن السفاد في غير موضعه . وفيه صولة وذميل : ، أي
وله عليهن أيضاً صيال وذميل . والذميل : السير اللين . البرز : ما يبرز
للشمس أو لضوئها . اليفاع : ما ارتفع من الأرض . الويل : العصا
الغليظة الشديدة . الأوار : الوهج . ذكا النار : اشتعالها من وهج طبخ
السموم . من فيح الفروغ : أي يفيح من فروعه أي من مجراه الذي
يجري منه . البضيع : الجزيرة في البحر . النقع : الغبار . انشام
نقعا : دخل فيه . السحيل : خيط لم يبرم . منيباً : راجعاً . محموز
القطاع : يريد أنه محموز السهام شديدها . الأقيدر : القصير العنق . =

فقد استطاع الشاعر في هذه الأبيات القليلة أن يصور
 حماراً وحشياً وأُتته التي ظهرت عليها علامات الحمل، فهي
 تعاسره وتتمنع منه، وهو يعابثها ويباريها ويتبعها، ..
 والحمار خائف ومذعور يخشى الصياد وكلابه، فتراه قد علا
 مرقبةً من الأرض يشرف منها على ما حوله، .. وبينما هو
 كذلك مالت الشمس نحو الغروب، لتودع نهاراً قاتظاً شديد
 الحر. . والحمار يطارد أُتته وهي تعدو أمامه فتثير غلالات
 من الغبار، تمتد كأنها حبال سحيلة لم تبرم. . وتحس هذه
 الحمر أن صياداً بادي الفقر يتربص بها الغوائل، فإذا تسمعت
 حركته وأيقنت منه الموت اشتدت في العدو مفزوعة
 مذعورة، فإذا اعترضها ماء آجن قد علاه الطحلب وألوان
 النبات ألقت بنفسها في غماره تبغي النجاة. . ويرسل الصياد
 سهامه نحوها، فيصيب فؤاد الحمار، إذ هو أقرب إليه من
 الأتن.

= القطع : النصل العريض القصير . بنقب الحجاب : أي بطريقة .
 والحجاب : مرتفع يكون في الحرة . رجيل : قوي . يفجّين بالأيدي :
 أي يفتحن ما بين أيديهن . الآجن : الماء المتغير الطعم واللون .
 مستأسد : إذا طال النبت يقال استأسد النبت . النجيل : ضرب من
 الحمض . اللصب : الشق في الجبل . القفيل : المكان اليابس .
 مفتوق الغرار : عريض النصل . والغرار : الحد . البجيل : الضخم .

وإذا أنعمنا النظر في هذه الصورة نجدها صورة كاملة، واضحة المعالم، بارزة السمات، فلم يترك الشاعر جانباً من الصورة إلا ملاء ووفاء حقه، سواء في ذلك الجانب الحركي، أو الجانب النفسي، أو ذكر الزمان والمكان. ولم يهمل التفاصيل، بل يؤكد لها ويدقق فيها، وتستطيع أن تلاحظ ذلك في: أن الأتن قد استبان حملها، والحمار حذر شديد الحذر، والغبار ممتد بين الحمار والأتن كخيوط لم تبرم، وهذا الصياد فقير سيء الحال، يتعقبها ويتربص بها، وحين تقذف الأتن بنفسها في الماء بغية النجاة. يصف الماء وهو آجن قد فسد، ويصف ما علي الماء من نبات طويل أخضر، ويمثل حركة أيديها تفجّج الماء سابحة، ثم يعين موضع الحمار من إنائه، فهو خلفها وأقرب إلى الصياد منها، وكان ذلك سبباً في إصابته.. ولا ينسى الشاعر أن يصف السهم الذي كانت رميته صائبة، فهو سهم ضخّم شديد عريض النصل.

وهكذا نجد الشمول في الوصف، والتدقيق في الصورة، والعناية بالجزئيات والتفاصيل، وكل ذلك دليل عناية الشاعر. لتأتي الصورة كاملة معبرة وافية، فيها تحبير وتحقيق وتدقيق. وهذه أبرز صفات الصورة عند فحول الشعراء.

بقر الوحش :

افتتن شعراء هذيل بالثور الوحشي ، والبقرة الوحشية ، فوصفوهما كثيراً في أشعارهم لا سيما في سياق القصص التي يروونها عنهما ، والتي تمثل صراع الثور مع كلاب الصيد . . والذي يخلف قصصاً حزينة ومؤثرة في هذا الميدان . ومن أشهر شعرائهم الذين برعوا في تصوير بقر الوحش « الداخل بن حرام ، وأبو نؤيب ، وساعدة بن جؤية » وغيرهم .

هذا أبو نؤيب الذي تحدث عن الحيوان كثيراً ، كما أنه برع في تسجيل حركاته في البادية . . ويظهر ذلك جلياً في كل ما يقصه من قصص . . فاستمع إليه في قصيدته العينية التي قالها في رثاء بنيه الخمسة حينما هلكوا في عام واحد ، وكانوا قد هاجروا الى مصر فأصابهم الطاعون . . وكانوا رجالاً ولهم بأس ونجدة ، فبكاهم جميعاً . . وجعل صدر قصيدته حديثاً بينه وبين زوجته ، فهي تسأله عن شحوبه وأرقه فيروي لها حزنه وألمه لهذه النكبة . ومما يلفت النظر في هذه القصيدة بلوّه الأبيات : ١٦ ، ٣٧ ، ٥١ بمطلع واحد وهو : « والدهر لا يبقى على حدثانه » . ففي

فأصيب بالجزع والفرع ، وأطلق سيقانه للريح خوفاً ورعباً ،
ثم أخذت الكلاب تطارده ، . . فأدركته ، وأخذ يطعنهما بقرنيه
الحادّين وعرزهما في لحمها فتلطخا بالدم ، وظهرا كأنهما
مصبوغان بصبغ أحمر ، ثم يشبه قرني الثور ، وقد تلطخا
بدماء الكلاب بسفودّين وضع عليهما الشواء ، ثم نزع قبل
نضجه وإدراكه ، فظهرا ملوثين بدم اللحم النيء . . وهي
صورة تمثل حالة دفاعه الشديد عن نفسه ، ومحاولته الاحتفاظ
بالحياة . . ثم كانت نهاية الثور المحتومة بعد مقاومته ودفاعه
عن نفسه ، حيث وقع على الأرض ، وتعفر بالتراب ، وتمدد
على جنبه . . ولكل جنب مصرع . . وذلك حيث يقول :

والدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ
شَبَبٌ أَفْرَتُهُ الْكِلَابُ مُرَوِّعٌ

شَعَفَ الْكِلَابُ الضَّارِيَاتُ فُؤَادَهُ
فَإِذَا رَأَى الصُّبْحَ الْمُصَدِّقَ يَفْزَعُ

وَيَعُوذُ بِالْأَرْضَى إِذَا مَا شَفَهُ
قَطَرٌ وَرَاحَتُهُ بَلِيلٌ زَعَزَعُ

يَرْمِي بَعَيْنَيْهِ الْغُيُوبَ وَطَرَفَهُ
مُغْضٍ يُصَدِّقُ طَرَفَهُ مَا يَسْمَعُ

فَقَدَا يُشْرِقُ مَتْنَهُ فَبَدَا لَهُ
أُولَى سَوَابِقِهَا قَرِيباً تَوَزُّعُ
فَاهْتَجَّ مِنْ فَرْعٍ وَسَدُّ فُرُوجِهِ
غُبْرُ ضَوَارٍ وَافِيَانِ وَأَجْدَعُ
يَنْهَشْنَهُ وَيَذُبُّهُنَّ وَيَحْتَمِي
عَبْلُ الشُّوَى بِالطَّرْتِينِ مُوَلِّعُ
فَنَحَا لَهَا بِمُذَلِّقَيْنِ كَأَنَّمَا
بِهِمَا مِنَ النَّضْخِ الْمُجَدِّحِ أُيْدَعُ
فَكَأَنَّ سَفُودَيْنِ لَمَّا يُقْتَرَا
عَجِلا لَهُ بِشِوَاءِ شَرْبٍ يُنْزَعُ
فَصَرَغَنَّهُ تَحْتَ الْغُبَارِ وَجَنَّبُهُ
مُتَتَرَّبٌ وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ^(١)

(١) قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ٢ / ١٥٥ الشيب :
الثور الذي اكتملت سنه ، أو هو الذي تم شبابه . أفزته : استخفته
وطيرته . مروّع : مخوف ومفزع . شغف الكلاب فؤاده : أذهبن قلبه
أو ملأن قلبه خوفاً . الضاريات : اللاهجة بالصيد المتعودة على
مطارده . الصبح المصدق : هو الفجر الصادق أي الحقيقي ، أو
المصدق هو الماضي . إضاءة ثابتة مستمرة . يعوذ بالأرطى : يلجأ إليه .
والأرطى : شجر . شفه : آذاه وجهده . القطر : المطر . راحته :
أصابته الريح . الليل : ريح الشمال الباردة . الزعزع : العنيفة . =

ونمضي مع الشاعر في تصوير الصائد الذي عَزَّ عليه
أن قتل الثور بعض كلابه، وفرَّ أمامه باقيها .. فرماه بسهم
صائب دخل تحت جنبه، وخرج طرفه من الناحية الأخرى ..
فسقط الثور مكباً على وجهه من ذلك السهم، كما يسقط
الجمال الضخم ميتاً .. ويبس جسمه، وتتجمد دماؤه، وإن
كان الثور أبرع وأسرع من البعير في حركاته .. ويمكن أن
نفهم مما سبق أن الكلاب قد أوقعته على جنبه وأن الصائد
قد أجهز عليه بسهمه الصائب .. بعد تلك المعركة
الحامية .. وذلك حيث يقول :

= الغيوب : جمع غيب وهو الموضع الذي لا يُرى ما وراءه . طرفه
مَغْضٍ : أي مُطْرَق . الطرف : العين . غدا : أصبح . يشرق منته :
يعرض ظهره للشمس . بدا له : ظهر له . أولى سوابقها : أي الكلاب
المطاردة له . توزع : توقف وتُحْبَس أو بمعنى تغرى به وتوجه إليه .
احتاج : تحرك مسرعاً . سدَّ فُروجه : ملأ قوائمه عدواً ، والفروج ما
بين القوائم . الغُبر : جمع أغبر وغبراء وهي الكلاب المطاردة ذات
اللون الأغبر المشبه للتراب . الوافيان : الصحيحان السليمان .
الأجدع : المقطوع الأذن . يذبهن : يذودهن عن نفسه . يحتمي :
يمنتع على الكلاب . عبل الشوى : ضخم القوائم غليظها . الطرتان :
خطان في جنبه يفصلان بين الجنب والبطن . مُولَع : فيه توليع أي
لونان مختلفان أبيض وأسود . المُدْلَقَان : القرنان الأملسان . المُجْدَع
: المحرك . الأيدع : صبع أحمر . لما يقترا : لم يظهر منهما ربح
قتار اللحم . شَرَب : جماعة الشاربين . صرعنه : أوقعنه على
الأرض .

فَرَمَى لِيُنْقِذَ فَرَّهَا فَهَوَى لَهُ
سَهْمٌ فَأَنْقَذَ طُرْتِيهِ الْمِنْزَعُ
فَكَبَا كَمَا يَكْبُرُ فَنِيقُ تَارِزُ
بِالْخَبْتِ إِلَّا أَنَّهُ هُوَ أَبْرَعُ^(١)

والحق أن أبا ذؤيب قد أجاد في وصف هذه الصورة الدقيقة، ولا شك أنها صورة نابضة بالحياة والحركة، وشاملة للجزئيات والتفاصيل.. حتى يمكن أن يقال إنها أشبه بشريط الخيالة «السينما» لا سيما تصويره الدقيق لنهاية الثور ومصرعه، تلك النهاية المفزعة التي تمت على أيدي الصياد وكلابه.

ونلاحظ من خلال عرض هذه الصورة الشعرية لأبي ذؤيب.. أن الشاعر قد أمكن سهام الصائد من قلب الثور، كما أمكن الكلاب منه.. فصرعته وأردته قتيلاً..

(١) المرجع السابق ٢ / ١٦٣ فرها : أي الكلاب والفر جمع فاز وهو الهارب من سطوة الثور. الطرتان : مكانا اللونين الأبيض والأسود في جنبه . أنفذ الطرتين : يعني دخل السهم جوف الرمية وخرج طرفه من الشق الآخر وياقيه في الجوف . المنزع : السهم . كبا : سقط لوجهه . الفنيق : فحل الإبل . التارز : الميت الذي ييس جسمه وتجمد دمه ولحمه . الخبت : المكان المستوي .

وقد ذكر «الجاحظ» أن الشعراء يجعلون كلاب الصيد هي التي تقتل بقر الوحش، إذا كان الشعر في مجال الرثاء والموعظة، أما إذا كان الشعر مديحاً فتكون الكلاب هي المقتولة، والثيران هي المنتصرة السالمة^(١).

الوعول :

هناك صور عديدة للوعول تتردد في أشعار هذيل.. وكثيراً ما كانوا يحرصون على وصفها مع تسجيل مناظر الصيد والصائد.

هذا «صخر الغي» يصور وعلاً مسناً وكيفية اصطياده.. فنراه يصور الوعل في تيهورة - أرض منبسطة - تحت السحاب، وفي موضع مخصب قد أصابه المطر، واستطاع فيه أن يتمتع بطول الحياة.. فشب مع الأيام وطال عمره، حتى أشرف قرنه وتثنى، وهو يصف الوعل كانساً

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٢ / ٢٠ .

إذا اقبل الليل، فيدخل في كناسه المستتر بين الشجر، ..
وانه يبيت كرجل كبير عليه غطاؤه .. وقد حارب أهله أي
عاداتهم وتنحى عنهم ، وذلك حيث يقول :

أُعَيْنِي لَا يَتَّقَى عَلَى الدُّهْرِ فَادِرُ
بِتَهْوَرَةٍ تَحْتَ الطُّخَافِ الْعَصَائِبِ
تَمَلَّى بِهَا طَوْلَ الْحَيَاةِ فَقَرْنُهُ
لَهُ حَيْدٌ أَشْرَافُهَا كَالرُّوَاجِبِ
يَبِيتُ إِذَا مَا آنَسَ اللَّيْلَ كَانِسًا
مَبِيتَ الْكَبِيرِ ذِي الْكِسَاءِ الْمُحَارِبِ
مَبِيتَ الْكَبِيرِ يَشْتَكِي غَيْرَ مُعْتَبٍ
شَفِيفَ عُقُوقٍ مِنْ بَنِيهِ الْأَقَارِبِ^(١)

ونمضي مع الشاعر حتى نراه يصور الوعل، وقد قُدِّرَ له
صائد يكسب لأبيه الشيخ الذي احدودب ظهره، وتحنت

(١) كتاب أشعار الهذليين ١ / ٢٤٦ الغادر : الوعل المسن . التيهورة : ما
اطمئن من الرمل . الطخاف : ما رَقَّ من الغيم . حيد : جوانب .
الرواجب : ما تتأمن أصول الأصابع إذا ضممت كفك . كانساً ، يقال :
كنس الظبي يَكْنِسُ دخل في كناسة . مبيت الكبير : أي منقبضاً كأنه
شيخ كبير في كسائه . غير مُعْتَبٍ : أي لا يُطلب رضاه فقد استخفوا
به . العقوق : القطيعة . الشفيف : الوجع .

عظامه ، .. ويحدثنا عن أمر الصائد الذي يحمي شيخه من كل أذى ، .. ثم يرسم صورة دقيقة واضحة لانتهاة حياة الوعل على أيدي ذلك الصياد الذي رماه بسهم عريض واسع النصل فقتله .. يقول :

أُتِيحَ لَهُ يَوْمًا وَقَدْ طَالَ عُمرُهُ
جَرِيمةُ شيخٍ قد تَحَنَّبَ سَاغِبِ
يُحامي عليه في الشتاء إذا شَتَا
وفي الصيف يَبْغِيهِ الجنا كالمُنَاحِبِ
فلَمَّا رآهُ قال لهُ مَنْ رَأَى
مِنَ العُصمِ شاةً قَبْلَهُ في العَوَاقِبِ
لَوْ أَنَّ كَرِيمِي صَيَدَ هَذَا أَعَاشَهُ
إِلَى أَنْ يَبْغِيثَ النَّاسَ بَعْضُ الكَوَاكِبِ
أحاطَ بِهِ حتى رماه وَقَدْ دَنَا
بِأَمْسَمَرٍ مَفْتُوقٍ مِنَ النَّبْلِ صَائِبِ^(١)

(١) جريمة شيخ : أي كاسب شيخ أي صائد يكسب لأبيه . تحنّب : احدودب . ساغب : جائع . المناحب : المجاهد . والنحب : النذر والمراد الذي يشاد في النذر . العصم : الأروى . كريمه : يعني شيخه . مفتوق من النبل : يريد سهما واسع النصل . صائب : قاصد .

الوحوش :

تناول الشعراء الهذليون كل ما وقعت عليه أنظارهم من
صنوف الحيوان . . . فصوروا الحيوانات المفترسة كالأسود
والنمور والذئاب والثعالب والضباع . فرسموا بذلك لوحات
رائعة . . فيها الحياة والحركة . . والجزئيات والتفاصيل .
ومن أشهر الشعراء الذين وصفوا الوحوش « ساعدة بن
جؤية ، وأبو كبير ، وصخر الغي ، والأعلم ، وأبو ذؤيب ،
وعمر بن لوحي » وغيرهم . ومن الحق أن وصفهم
للوحوش يدل على معرفتهم الواسعة بطبائع الحيوان .

هذا « ساعدة بن جؤية » نراه في قصيدة له يرثي فيها
ابنه أبا سفيان . . يصور حالة أسد في غابة . . . ويصف
جماعة من القوم حين غشيهم ، . . . وبعد أن صور لنا الأسد
وأشباهه في مأسدته حيث يستتره الغيل والشجر الكثيف . أخذ
يصف الناس ومواشيهم التي تركوها تسوم وراء الكلا . . ،
وكيف أن الأسد نهض إليها وغشيها في بيوتهم لما أراحوا
إليها . . ثم يصور الأسد وهو يقصم أعناق المخاض كأن
زجاج الرماح في أنيابه ، أو كأن أنيابه رماح قد وتدت . . .
يقول :

فَمَا خَادِرٌ مِنْ أَسَدٍ حَلِيَّةٍ جَنَّهُ
وَأَشْبَلُهُ ضَافٍ مِنَ الْغِيلِ أَحْصَدُ

أَرَاكَ وَائِلٌ قَدْ تَحَنَّتْ فُرُوعُهُ
قِصَارٌ وَأَسْلُوبٌ طَوَالٌ مُحَدَّدُ

إِذَا اخْتَضَرَ الصَّرْمُ الْجَمِيعُ فَإِنَّهُ
إِذَا مَا أَرَا حُوا حَضْرَةَ الدَّارِ يَنْهَدُ

وَقَامُوا قِيَاماً بِالْفَجَاجِ وَأَوْصَدُوا
وَجَاءَ إِلَيْهِمْ مُقْبِلًا يَتَوَرَّدُ

يُقَصِّمُ أَعْنَاقَ الْمَخَاضِ كَأَنَّمَا
بِمَفْرَجٍ لَحْيِيهِ الزُّجَاجُ الْمُوتَدُ^(١)

(١) المرجع السابق ٣ / ١١٦٨ الخادر : هو الذي اتخذ من الغيضة خدراً .
جنه : يقال جنه الليل أي ستره . الغيل : ما كثف من الشجر .
أحصد : مكنتز . تحنت : تثنت . فروعها : أغصانها . أسلوب : طريقة
واحدة . نهذ إليهم : نهض إليهم . حضرة الدار : حيث تكون الدار .
احتضر الصرم : أي أهل الدار . الصرم : الجماعة من البيوت .
يتورد : أي يغشاهم في بيوتهم . الوصيد : الفناء . يقصم : يكسر .
مفرج لحيته : منفتح لحيه يريد فاه . الموتد : أي كأنها رماح قد
وتدت .

أما « صخر الغي » فإنه يعرض للنمر ويصوره في مشيته
حين تهب عليه الرياح الباردة . . . حيث يقشعر ، وينقبض
ويتحرف ولا يستمر في الماضي . . . يقول :

وماءٍ وَرَدْتُ عَلَى زُورَةٍ
كَمَشِي السَّبْتَى يَرَا حُ الشُّفَيْفَا^(١)

وقد وردت الذئاب كثيراً في شعر أبي كبير ، ومن
حديثه لا بدته زُهَيْرَة نفهم أنه عرف الذئاب كثيراً في أيام
الشباب ، فنراه في إحدى قصائده يذكر أنه بلغ من جرأته أن
أتى مورد ماء لا يرده إلا الذئاب النحيلة التي تسرع في
مشيتها ، وهي تريد أن تشرب منه كما تشرب الحيات . . .
وكيف أن الذئاب لا تستطيع الوصول إليه إلا من طريق ضيقة
جداً . . . حتى إن الذئب يمشي فيها على حرفٍ كما يمشي
الأخلف - وهو الْمُعَوَّج - إذا مشى ، . كما أن الذئاب تعوي
حول ذلك الماء من شدة الجوع . . . وذلك حيث يقول :

(١) المرجع نفسه ١ / ٣٠٠ زورة : ازورار . السبتى : النمر وهو اسم من
أسمائه . يراح : يجد الرياح . الشفيف : البرد . . يريد أن النمر مزور
يمشي في جانب وأنه تحرف فلم ينبسط في الماضي .

ولقد وَرَدَتْ الماءَ لم يَشْرَبْ بِهِ
 بينَ الرَّبِيعِ إلى شُهُورِ الصَّيْفِ
 إلا عَوَاسِلُ كَالْمِرَاطِ مُعِيدَةٌ
 بِاللَّيْلِ مَوْرِدٌ أَيُّمٌ مُتَغَضِّفٌ
 يَنْسِلُنَ فِي طُرُقِ سَبَاسِبَ حَوْلَهُ
 كَقِدَاحِ نَبَلٍ مُحَبَّرٍ لَمْ تُرْصَفِ
 تَعْوِي الذُّثَابُ مِنَ الْمَجَاعَةِ حَوْلَهُ
 إِهْلَالُ رَكْبِ الْيَاسَنِ الْمُتَطَوِّفِ
 زَقَبٌ يَظَلُّ الذُّثْبُ يَتَّبَعُ ظِلَّهُ
 مِنْ ضَيْقٍ مَوْرِدِهِ أَسْتِنَانُ الْأَخْلَفِ^(١)

فهذه صورة متحركة في وصف الذئب ، وهو تتبع دقيق
 في رسم صورة الذئب ، وإني معجب بهذا التصوير ، لا

(١) المرجع نفسه ٣ / ١٠٨٥ عواسل : تعسل في مشيها أي تسرع يعني
 الذئب . المرط : النبل المتمرطة الريش . معيدة : أي معيدة
 الشرب . الأيم : الحية . متغضف : منطو ومنثن . المحبر : المحسن
 والمزين للشيء . ينسلن : الذئب ينسلن أي يسرعن . السباسب :
 جمع سبب وهو المستوي البعيد . اليامن : الذي يجيء من اليمين .
 الزقب : الضيق . الاستنان : العدو . الأخلف : العير المخالف
 المفوج .

سيما عندما شبه مشي الذئب في الطرق الضيقة المؤدية
لمورد الماء بمشي الأخلف الذي يمشي بحذر شديد خشية
التعثر أو الوقوع . وكل هذا يدل على أن الشاعر قد عرف
الكثير من أمر الذئاب وأنه علم بها وبأحوالها وطبائعها . . .
ولذا كانت صورته دقيقة للغاية ، وكانت صورة متحركة نابضة
 بالحياة ، قد بلغت قمة الجودة في وصف الذئب والذئاب .

ويبدو أن الذئاب كانت تهدد أغنامهم في البادية ، وقد
صور الشعراء ذلك في أشعارهم . . . وهناك أرجوزة لعمر
ذي الكلب يصور فيها الذئب الجائع ، ويرسم له صورة دقيقة
مكتملة التفاصيل ، واضحة الملامح . . . فيتحدث فيها عن
الغنم ، وعن الذئب الذي جاء بسرعة من علاوة الريح . . .
يقول :

يَا لَيْتَ شُعْرِي عَنْكَ وَالْأَمْرُ عَمَّ
هَلْ جَاءَ كَغَبٍّ عَنْكَ مِنْ بَيْنِ النَّسَمِ
مَا صَنَعَ الْيَوْمَ أُوَيْسٌ فِي الْغَنَمِ
صُبَّ لَهَا فِي الرِّيحِ مَرِيحٌ أَشَمٌّ^(١)

(١) المرجع نفسه ٢ / ٥٧٥ عمم : عام . النسَم : الناس . أُويس :
الذئب ويسمى أوماً كذلك . مَرِيح : من المرح . أَشَم : رافع رأسه .

ثم يصور الذئب وكيف انقض على الغنم واختار لجبةً
منها ، وهي التي أتت عليها أربعة أشهر من ولادها فخف
لبنها .. فيقول :

فَاعْتَمَ مِنْهَا لَجَبَةً غَيْرَ قَزَمَ
حَاشِكَةَ الدَّرَّةِ وَرَهَاءَ الرُّخْمِ
فَجِئْتُ لَا يَشْتَدُّ شَدِّي ذُو قَدَمٍ
وَفِي الشُّمَالِ سَمْحَةٌ مِنَ النَّشْمِ^(١)

وفي آخر أرجوزته نراه يقسم على قتله ، فيقول : لئن
رمى هذا الذئب من بعيد أو قريب لأقتلنه ، وذلك حيث
يقول :

قَدْ كُنْتُ أَقْسَمْتُ فَتَنَيْتُ الْقَسَمَ
لِئِنْ نَأَيْتُ أَوْ رَمَيْتُ مِنْ أُمِّ
لَأَخْضِبَنَّ بَعْضُكَ مِنْ بَعْضٍ بِدَمٍ^(٢)

(١) اعتام الذئب : اختار من الغنم . لجبة : هي التي أتت عليها أربعة
أشهر من ولادها فخف لبنها . القزم : اللثيم من كل شيء . حاشكة :
حافل . ورهاء : كأنها مجنونة . الرخم : المَحَبَّةُ فإذا أحبت ولدها
فكأنها مجنونة من شدة حبها له . سمحة : قوس سهلة ليست بكزة .
النشم : شجر .

(٢) رميت من أمم : أي من قصد . والأمم أيضاً : القُرب . يقول : ما كان
غير بعيد ولا قريب .. بين ذلك .

وتحتل الضباع جزءاً كبيراً من شعر «الأعلم» ، وهو يصفها وصفاً دقيقاً ، ويصف جراءها وانتفاخ بطونها ، ويشبه جلودها بثياب الرهبان السود ، ثم يشبه آذانها بالمغارف ، لأنها قصيرة وعريضة ، ثم يصور فعلهن بالفريسة ، وكيف ينزعن جلدها نزاعاً شديداً ، كما ينزع الحداد بطائن الجفون البالية ، وذلك في قوله :

وَتَجْرُ مُجْرِيَةً لَهَا لَحْمِي إِلَى أَجْرِ حَوَاشِبُ
سُودٍ سَحَالِيلِ كَأَنَّ جُلُودَهُنَّ ثِيَابُ رَاهِبٍ
آذَانُهُنَّ إِذَا اخْتَضَرْنَ فَرِيَسَةً مِثْلُ الْمَذَانِبِ
يَنْزَعْنَ جِلْدَ الْمَرْءِ نَزْعَ الْقَيْنِ أَخْلَاقَ الْمَذَاهِبِ^(١)

وهو تشبيه على قصره نرى فيه الروعة والجمال ودقة الوصف ، فالشاعر يكتفي بالملاحظة الدقيقة ، ويعتمد على الموازنة الواضحة .. وهو يلمح الصورة لمحاً .

على أن « ساعدة بن جؤية » قد رسم لنا صورة متحركة حقاً ، حين وصف الضبع وهي تمشي في هدوء الليل مشياً

(١) المرجع السابق ١ / ٣١٤ مجرية : ضبع ذات جراء . أجر : جمع جرو . حواشب : متفخات البطون وقصار . السحالييل : جمع سحلال وهي العظام البطون . المذانب : المغارف . المذاهب : أخلة السيوف وهي بطائن الجفون المذهبة . القَيْن : الحداد .

وثيداً ، وكانت الضبع مثقلة ومسنة ، تقضي الليل بحثاً عن
حمار مات أو إنسان قتل ، ثم يشبه مشيها وهي تسير في
هدوء الليل بمشي الرجل الأقبل - أي الأحول - الذي يسير
بالليل وكأنه يتلفت هنا وهناك . . . ويدير عينيه . ثم يصفها
حين مرت بين طرق المقابر ، ثم فتحت ما بين يديها وأخذت
تنبش التراب . . وذلك حيث يقول :

إذا ما زار مُجَنَّةً عليها
ثُقال الصُّخَرِ والخَشَبِ القَطِيطِ

وغودِرَ ثاويًا وتَأَوَّيْتُهُ
مُذَرَّعَةً أُمَيْمَ لها قَلِيلُ

لها حُفَّانٍ قد تُليًا ورَأْسُ
كَرَّاسِ العَوْدِ شَهْبَرَةٌ نَوُولُ

تَبَيَّتُ اللَّيْلَ لا يَخْفَى عليها
حمارٌ حيثُ جُرُّ ولا قَتِيلُ

كَمَشِيَ الأَقْبَلَ السَّارِي عليها
عَفَاءٌ كالعَبَاءَةِ عَفْشَلِيلُ

فَذَاحَتْ بِالْوَتَائِرِ ثُمَّ بَدَتْ
يَدَيْهَا عِنْدَ جَانِبِهِ تَهِيلٌ^(١)

ولا شك أن هذه صورة حية ومتحركة ، تدل على ذكاء
الشاعر وقدرته على الوصف الدقيق الذي ينبض بالحياة . .
وتدل كذلك على معرفته بطباع الضباع . . فمن المقرر عند
علماء الحيوان أن الضباع مولعة بأكل الموتى ، فهي « تنبش
القبور وذلك من فرط طلبها للحوم الناس »^(٢) . وهذه
الحقيقة العلمية المقررة هي التي عرفها « ساعدة بن جؤية »
في الجاهلية ، وظهرت آثارها في شعره حين وصف الضبع
في دقة رائعة .

(١) المرجع نفسه ٣ / ١١٤٦ مجناة : يعني القبر . القطيل : المقطوع .
غودر : ترك . الثاوي : المقيم . مزرعة : يعني ضبعاً بذراعيها توقيف
أي آثار . الفليل : الشعر والوبر : لها خفان : أراد أن لها حذاء
غليظاً . . قد تكسرا وتعجشبا . شهيرة : مسنة . نؤول : أي تمشي
كانها مثقلة . العود : المسنن من الإبل والشاء . الأقبل : الذي في عينه
« قبل » شبيه بالحوّل . عفاؤها : وبرها وشعرها . العفشليل : الجافي
الثقيل . ذاحت : مرت مرأً سريعاً سهلاً . الوتائر : طرائق مرتفعة من
الأرض يتبع بها بناء القبور . بدت يديها : أي فتحت ما بين يديها .
تهيل : تنبسن .

(٢) الحيوان للجاحظ ٦ / ٤٥٠ .

الطيور :

افتتن شعراء هذيل بوصف الطير .. فوصفوا الحمام والنعام والصقور والعقبان ... وغير ذلك من صنوف الطير التي تناولوها في أشعارهم ... وتحدثوا عن أشكالها وطبائعها ، ووقفوا على سلوكها ، ونقلوه بدقة بالغة في صور شعرية جميلة ... مما يدل على قوة ملاحظتهم .

وكثيراً ما كان شعراء هذيل يحدثوننا عن صنوف الطير ، في صدد الحديث عن عدوهم ... فهذا « الأعلم » يحدثنا عن الظليم في قصيدة له يذكر فيها فرته من قوم كانوا يطلبونه .. ويذكر أنه كان من شدة عدوه أشبه بالظليم ، ثم يمضي يصف الظليم ، بأنه سريع يعترض فراخه في وقت العشية ، وهو غليظ الساقين طويلهما ، وقد تساقط ريشه ، ثم هو مذعور قد أختبأ بين أشجار طويلة ، فإذا عدا يخفق جناحه كما تخفق الريح الجنوبية بشباب جديدة غير بالية .. وذلك حيث يقول :

كَأَنَّ مُلَاءَتِي عَلَى هِزْفٍ
يَعْنُ مَعَ الْعَشِيَّةِ لِلرُّئَالِ
عَلَى حَثِّ الْبُرَايَةِ زَمْخَرِي السُّ
وَأَعِدْ ظِلٌّ فِي شَرِي طَوَالِ

هَزَفَ أَصْنَفِ السَّاقِينَ هَقْلٍ
يُبَادِرُ بَيْضَهُ بَرْدَ الشُّمَالِ
أَحْسَ ضَبَابَةً وَعَمَاءَ لَيْلٍ
يُبَادِرُ غَوْلَ وَادٍ أَوْ رِمَالٍ
كَأَنَّ جَنَاحَهُ خَفَقَانُ رِيحٍ
يَمَانِيَةً بِرَيْطٍ غَيْرِ بَالِي^(١)

أما «أبو خراش» فإنه يرسم في بعض شعره صورة صادقة لوجه من أوجه الصراع الذي يدور في تلك الصحراء المقفرة، بين كائناتها الحية، ويظهر في هذا الشعر دقة الوصف، حيث يصور لنا صراعاً بين صقر وأرنب . . فالصقر فوق مرتفع مشرف على الأفاق ، وقد رأى على بعد منه أرنباً بين شقوق الأرض ، . . وكيف أن الصقر ضم جناحيه وهوى إليها . . وكيف أنها كانت مرتعدة تحاول النجاة منه . . ولكن

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٣١٩ الهزف : الظليم السريع وهو الذكر من النعام . يعن : يعرض . الرئال : فراخ النعام . الحت : السريع . البراية : إذا براه السير . زمخري : غليظ طويل . السواعد : العروق . الشري : شجر تتخذ منه القسي . أصنف : متقشر . هقل : من أسماء النعام . العماء : أشد الغيم ارتفاعاً . غَوْل : بُعْد . ريح يمانية : من الجنوب . الریط : ملاحف غير ملفقة .

بلا فائدة، فانتظم قلبها .. ولا عجب في ذلك فهو صيود
لحبات القلوب .. يقول :

ولا أَمْعُرُ السَّاقِينَ ظِلُّ كَأَنَّهُ
على مُخْزِيَاتِ الإِكَامِ نَصِيلُ
رَأَى أَرْبَاباً مِنْ دُونِهَا غَوْلُ أَشْرَجِ
بَعِيدٌ عَلَيْهِنَّ السَّرَابُ يَزُولُ
فَضَمَّ جَنَاحَيْهِ وَمِنْ دُونِ مَا يَرَى
بِلَادَ وَحُوشٍ أَمْرُغٌ وَمُحَوَّلُ
تَوَائِلُ مِنْهُ بِالضَّرَاءِ كَأَنَّهُمَا
سَفَاةٌ لَهَا فَوْقَ التَّرَابِ زَلِيلُ
يُقَرِّبُهُ النَّهْضُ النَّجِيحُ لَمَّا يَرَى
وَمِنْهُ بُدُوٌ مَرَّةً وَمُثُولُ
فَأَهْوَى لَهَا فِي الْجَوِّ فَاخْتَلَّ قَلْبُهَا
صَيُودٌ لِحَبَّاتِ الْقُلُوبِ قَتُولُ^(١)

(١) ديوان الهذليين ٢ / ١٢٣ أَمْعُرُ السَّاقِينَ : لا ريش عليهما يريد صقراً .
المُخْزِلُ : المشرف . النَصِيلُ : حجر يجعل في البئر . الأَشْرَجُ :
شقوق تكون في الأرض بعيدة طوال . غَوْلُ : ذات بعد . يَزُولُ : أي
يتحرك . بِلَادَ وَحُوشٍ : أي بلاد واسعة تسكنها الوحوش . تَوَائِلُ : أي
تتوارى لتنجو منه . الضَّرَاءُ : ما وارك من الشجر . السَفَاةُ : الشوكة .
وقوله .. لَهَا فَوْقَ التَّرَابِ زَلِيلُ : أي من خفتها تزل فوق الأرض .
اختل قلبها : أي انتظمه .

ولم يكتف شعراء هذيل بالوصف فحسب، بل إننا نرى
لهم أحياناً حواراً مع بعض الطير، ولعل من الطريف ما
فعله «صخر الغي» حين جعل حواراً بينه وبين حمامة تشاركه
في الظروف التي يمر بها. ففي إحدى قصائده التي يرثي فيها
ابنه تليداً، يذكر أنه حين خرج في الليل ملثعاً حزناً على
فقد ابنه، سمع صوت حمامة تنوح في هدوء الليل بموضع
سبلل، وانها لا تنام مع النيام، والطريف أنها تنوح على
فرخها.. ثم يأخذ الشاعر في وصف حوار دار بينه وبين
الحمامة حيث سألها عن ابنه تليد وسأله عن فرخها، وذلك
حيث يقول :

وما إن صَوْتُ نَائِحَةٍ بِلَيْلٍ
يَسْبُلُّ لَا تَنَامُ مَعَ الْهُجُودِ

تَجْهِنَا غَادِيَيْنِ فَسَاءَ لَتْنِي
بِوَاحِدِهَا وَأَسْأَلُ عَنْ تَلِيدِي

فَقُلْتُ لَهَا فَأَمَّا سَأَى حُرٍّ
فَبَانَ مَعَ الْأَوَائِلِ مِنْ ثَمُودِ

وقالت لن تَرى أبداً تليداً
بِغَيْنِكَ آخِرَ الْعُمَرِ الْجَدِيدِ

كَلَانَا رَدُّ صَاحِبِهِ بِبِئْسَ
وَتَأْنِيْبٍ وَوَجْدَانٍ بَعِيدٍ^(١)

النحل :

اشتهرت قبيلة هذيل بتربية النحل واشتتار العسل ، وفي
أشعارهم الكثير من القصائد والمقطعات التي يصف بها
النحل وسعيه في الأرض بحثاً عن الأزهار والاشجار التي
يمتص رحيقها .. وتحدثوا كثيراً عن موطن العسل ، وكيف
يشتارونه بالحبال من شماريخ الجبال وشعابها .. ثم ما
يكابده المشتار من تعب ومشقة وما يتعرض له من أخطار ..

(١) المرجع السابق ٢ / ٦٧ نائحة : يعني حمامة تنوح . سَبَّل : موضع
الهجود : النيام . تَجَهَّنَا : تواجهننا وتقابلنا . سَاق حَرَّ : ظن أن ساق
حر ولدها فجعله اسماً له ، وذكر أبو عمرو أن ساق حر : واحدتها .
العمر الجديد : يعني أن كل يوم جاء فهو جديد .. فقد أخبرته أنه لا
يرى تليدا أبداً حتى آخر العمر .

وذكر الجاحظ أن الأعراب أعرف بكل صمغة سائلة وعسلة ساقطة، وأن أهل تهامة وهذيلاً وضواحي كنانة هم أصحاب العسل^(١).

واستمع معي إلى أبي نؤيب لترى دقته في وصف النحل، وكيف يرسم بريشته صورة دقيقة له، فيذكر في قصيدة له أن النحل تأوي إلى رؤوس الجبال، فتأكل من ثمرها، ثم تنزل إلى وسطها أو أسفلها حيث البرودة فتعسل فيه، وذلك لصلاحية المواضع الباردة للتعسيل.. وكيف أن جماعة النحل طارت في ذلك الموضع، وشق عليها الطيران لطول ذلك الجبل، ومع ذلك كانت سريعة ونشطة.. حتى إنه يشبهها في سرعتها بقتير الغلاء - أي نصال السهام - التي تتابعت إلى مقاصدها، هذا بينما تظل صغار اليعاسيب على الثمراء في انتظار امهاتها.. يقول:

جَوَارِسُهَا تَأْرِي الشُّعُوفَ دَوَائِباً
وَتَنْصَبُّ أَلْهَاباً مَصِيفاً كِرَابُهَا
إِذَا نَهَضَتْ فِيهِ تَصْعَدُ نَفَرَهَا
كَقَتْرِ الْغَلَاءِ مُشْتَدِراً صِيَابُهَا

(١) الحيوان ٥ / ٤٢٦ .

يَظَلُّ عَلَى الثَّمَرِ مِنْهَا جَوَارِسُ
مَرَاضِيْعُ صُهْبُ الرِّيشِ زُغْبُ رِقَابِهَا (١)

وعلى هذا النحو كان وصف شعراء هذيل لأنواع
الحيوان، وصنوف الطير. فقد كانوا يرصدون مظاهر
البادية .. والواقع انهم لم يتركوا مظهراً من مظاهر الحياة
وقعت عليه أنظارهم إلا سجلوه في أشعارهم ، .. حتى
الأشياء الصغيرة التي قد تبدو قليلة الأهمية لا تلفت النظر،
ولا تستحق التسجيل .. على نحو ما نرى في هذه الأبيات
وهي للمُتَنَخِّلِ ، يتحدث فيها عن الماء الذي ورده ، وما كان

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٩ جوارسها : يريد أواكل النحل .
تأوى الشعوف : أي تعسل في الشعوف وتأخذ منها .. والشعوف :
رؤوس الجبال . الألهاب : جمع لَهَب وهو الشق في الجبل . مصيفا :
أصابها مطر الصيف . الكربة : فصل ما بين الجبلين . تصعد نفرها :
شق عليها طيراتها . قتر الغلاء : نصال السهام . التمرء : هضبة بشق
الطائف مما يلي السراة ، وقال بعضهم : شجر مشمر ، وقيل جبل -
مراضيع : حديثات عهد بالتفريخ وهذا مثل . والمراد أن معها نحلاً
صغاراً . صهب الريش : يعني أجنحتها .

حوله من البعوض .. فيقول :

كَأَنَّ وَغَى الْخَمُوسِ بِجَانِبَيْهِ
وَغَى رَكْبٍ أَمِيمٍ ذَوِي هِياطٍ

كَأَنَّ مَزَاحِفَ الْحَيَّاتِ فِيهِ
قُبَيْلَ الصُّبْحِ آثَارُ السُّيَاطِ

شَرِبْتُ بِجَمِّهِ وَصَدَرْتُ عَنْهُ
وَأَبْيَضُ صَارِمٌ ذَكَرُ إِبَاطِي^(١)

فلم يَرُق للشاعر أن يشبه مورد الماء وما حوله من طنين
البعوض إلا بالركب أو القافلة وما يصحبها من الصباح
والجلبة والمجادلة .. والحق انها صورة جميلة ورائعة ، وهو
تشبيه من صميم البادية . وعلينا أن نلاحظ ما في البيت
الثاني من جمال وروعة .. حيث شبه الشاعر آثار زحف
الحيات في ذلك المكان بالآثار الباقية نتيجة الضرب

(١) المرجع السابق ٣ / ١٢٧٢ الخموس : البعوض . الهياط : الصباح
والمجادلة . الوغى : هو الصوت في الحرب . جمه : ما اجتمع في
البئر من الماء .. والجمة : معظم الماء . إباطي : من قولهم ...
تأبط السيف .

بالسياط . وقد ذكر «السكري» أنه بيتُ القصيدة، وأنه أحسن ما وصف^(١) .

ونستطيع ان نقرر من خلال هذا البحث: أن الشعراء الهذليين قد برعوا أشد البراعة في تصويرهم لصنوف الحيوان ، حتى لتعد رسومهم الشعرية لوحات فنية رائعة، توفرت لها كل مقومات الفن والصناعة . وتظهر فيها كذلك معرفتهم الواسعة بطباع الحيوان وتصرفاته، وتجاربهم المتعددة، وخبراتهم الواسعة ، ودُرْبَاتِهِم المتنوعة في هذا الميدان . كل ذلك في عناية ملحوظة بالتفاصيل والجزئيات ، ومهارة فائقة في استخدام الأصباغ والألوان، وبراعة ممتازة في توزيع الظلال والأضواء، ومقدرة جديرة بالإعجاب على إشاعة الحركة وبت الحياة في كل لوحة منها . بحيث يقدرها لهم الأدباء والنقاد في كل العصور .

(١) المرجع نفسه ٣ / ١٢٧٣ .

المصادر والمراجع

- ١ - أسس النقد الأدبي عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوي - مكتبة نهضة مصر - مطبعة الرسالة - الطبعة الثانية ١٩٦٠ م .
- ٢ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - تحقيق الاستاذ عبد الستار أحمد فراج ، دار الثقافة ببيروت ١٩٦٠ م .
- ٣ - البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام محمد هارون - مطبعة دار التأليف بمصر - الطبعة الثالثة ١٩٦٨ م .
- ٤ - الحيوان للجاحظ - تحقيق وشرح الاستاذ عبد السلام محمد هارون - مطبعة مصطفى الحلبي - الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

٥ - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . . للدكتور يوسف خليف - طبع دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية .

٦ - الشعر والشعراء لابن قتيبة - تحقيق وشرح الأستاذ أحمد محمد شاكر - دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م .

٧ - العمدة لابن رشيق - تحقيق وتعليق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الثانية ١٩٥٥ م .

٨ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للألوسي - شرح وتصحيح الأستاذ محمد بهجة الأثري - مطابع دار الكتاب العربي بمصر - الطبعة الثالثة .

٩ - جمهرة انساب العرب لابن حزم الأندلسي - تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون - طبع دار المعارف بمصر - الطبعة الثالثة ١٩٧١ م .

١٠ - حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون - ترجمة الأستاذ عادل زُعَيْتَر - مطبعة عيسى الباب الحلبي بمصر ١٩٦٩ م .

١١ - ديوان الهذليين - طبع مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥ م .

١٢ - شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والاسلامي
للدكتور أحمد كمال زكي - دار الكتاب العربي للطباعة
والنشر بالقاهرة - ١٩٦٩ م .

١٣ - صورة الأرض لابن حوقل ، طبع بيروت .

١٤ - فحولة الشعراء للأصمعي - شرح وتحقيق الاستاذين
محمد عبد المنعم خفاجي وطه محمد الزيني - المطبعة
المنيرية بالقاهرة - طبعة أولى ١٩٥٣ م .

١٥ - قطوف من ثمار الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام
للدكتور عبد السلام سرحان - دار القومية العربية للطباعة
بالقاهرة - الطبعة الثانية ١٩٧٢ م .

١٦ - قلب جزيرة العرب للأستاذ فؤاد حمزة - المطبعة
السلفية ومكبتها ١٩٣٣ م .

١٧ - كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها - عرام بن الأصبغ
السلمي - تحقيق عبد السلام هارون ١٣٧٣ هـ .

١٨ - كتاب شرح اشعار الهذليين لأبي سعيد السكري -
تحقيق الأستاذ عبد الستار احمد فراج ومراجعة الاستاذ
محمود محمد شاكر - دار العروبة بالقاهرة ١٩٦٥ م .

١٩ - معجم ما استعجم للبكري - تحقيق الأستاذ مصطفى السقا - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٥ م .

٢٠ - نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

٢١ - وفيات الأعيان لابن خلكان - تحقيق إحسان عباس - طبع دار الثقافة ببيروت . وطبعة النهضة المصرية محمد محيي الدين عبد الحميد ١٩٤٨ م .